الأميرُ، بين الحياةِ والموتِ

ارتفعت الفأسُ عاليًا، وهوَتْ بسرعةٍ لتفصِلَ رأسًا عن جسدها؛ فبدأ الحشـدُ يَضِـجُّ ويتسـاءلُ في دهشـةٍ، وقامَ قائدُ الحصـنِ وقاسـم الجراح.

وصاحَ الأخيرُ: «ما معنى هذا؟!».

وقبل أن يحصـلَ على أيّ إجابةٍ، سـقطتْ رأسُ وجسـدُ الجنديّ الذي قادَ ليون إلى المنصـةِ، بينما التفتَ منفّذُ الحكمِ إلى الحشـدِ وألقى بخمسِ كراتٍ سـوداء صـغيرةٍ. وفي لحظةٍ، ازدادت الفوضـى مع خروجِ سحابةٍ مِن الدخانِ مِن الكراتِ الصغيرةِ.

- «هيَّا! اتبعني!».

جاءَ صـوتُ فتاةٍ مِن خلفِ قناعِ منفّذِ الحكمِ، وعادَ ليون إلى قدميهِ بعد أن فكَّت قيدهُ، وباسـتعادةِ ليون لحريتهِ واتزانهِ، وبتخلصِ الفتاةِ مِن الجلبابِ المعيقِ في الحركةِ، أخذا يركضان ناحيةَ برجِ الحصنِ القريبِ.

لقد أنقذتْ منفّذةُ الحكمِ ليون...

أما في الناحيةِ الأخرى مِن سـحابةِ الدخانِ، اسـتشـاطَ قاسـم الجراح غضـبًا، محمّلًا قائدَ الحصـنِ مسـئوليةَ كلّ ما كان يحدثُ، ثم حملَ سـيفهُ العريضَ الضـخمَ عاليًا حتى يلتفتَ إليهِ جميعُ الجنودِ وتنتهي الفوضـى، وصـاحَ بهم: «ما الذي تنتظرونهُ؟ وراءهم!»، ثم التفتَ إلى قائدِ الحصنِ وصاحَ بهِ: «لن تفشلَ مهمةٌ وأنا على قيدِ الحياةِ!».

وانطلقَ عدةُ جنودٍ ليعبروا سـحابةَ الدخانِ ويلاحقوا الهدفين، ولكن صرخاتهم سرعانَ ما سُمِعَتْ، وسقطتْ أشباحهم إلى الأرضِ بعد أن كانتْ تركضُ مفعمةً بالحياةِ. ولمْ تنتهِ الفوضى بعد؛ ففي اللحظةِ التاليةِ بدأ جنودٌ آخرون في التساقطِ مِن وسطِ الحشدِ، فتنبهَ قاسم إلى ما كانَ يحدثُ؛ فرفعَ سيفهُ عاليًا وقطعَ سهمًا كانَ قد سُددَ تجاههُ، وصاحَ مخاطبًا القائدَ: «لديهم قنَّاص! أليس الرماةُ في مواقعهم؟!».

ولكن قائدَ الحصنِ لمْ يستطعْ أن يجيبَ؛ على كرسيهِ ظلَّ جامدًا بسهمٍ يخترقُ رأسهُ.

صاحَ قاسم بالرجالِ: «تحركوا! لن يحدثَ خيرٌ لكم إن قصَّرتم! اقتلوهما!».

ثم جذبَ أحدَ الجنودِ واستخدمهُ كدرعٍ بشريٍّ إلى أن وصلَ إلى مكانٍ غير مكشوفٍ -مكانًا آمنًا مِن قنَّاصِ الأعداءِ-، وحينها جاءهُ رجلٌ مِن الجنودِ يلهثُ ويقولُ: «حددنا... مصدرَ السهامِ يا سيدي...».

- «قل ما عندك!».

- «الأمرُ أنَّ...».

-«هيَّا!».

- «المشكلةُ... السهامُ تُطلقُ مِن بعيدٍ جدًا... حتى أني أجدهُ مستحيلًا رغم رؤيتي لهُ بعيني... إنها تُطلقُ مِن ناحيةِ الجبلِ».

ألقى قاسم نظرةً حذرةً على الجبلِ الذي بُني الحصنُ عند سَفْحِهِ، وتيقَّنَ مِن أمرٍ لمْ يَسُرهُ بالمرةِ، فتمتم ببطءٍ: «مِن هذا المدى... سلاحٌ جِيمَاتَيْتِي... لقد تعقدت الأمورُ».

- «إلى أين تقودينني؟».

- «لا وقتَ للكلامِ! فقط اتبعني!».

دخلت الفتاةُ ذات القناعِ الأسـودِ إلى برجِ الحصـنِ وتبعها ليون وقد اختفى الخوفُ والقلقُ مِن عينيهِ، لقد أحسَّ بالحياةِ ثانيةً عندما ركضَ بكلِّ ما أوتي مِن قوةٍ، وها هو الآن على قيدِ الحياةِ كما أخبرهُ العجوزُ بالزنزانةِ، يركضُ كَمَن يلاحقُ هدفًا ولا علمَ لهُ ما هو هذا الهدفُ.

مِن داخلِ البرجِ، أخذت الفتاةُ طريقًا ممتدًا إلى أقدمِ المباني بالحصـنِ، مبنى كانت بهِ غرفةُ القيادةِ قديمًا وصار الآن مجرَّد إسكانٍ لبعضِ الجنودِ.

- «ثقْ بي، ستخرجُ مِن هنا حالًا!».

تحدثت الفتاةُ بثقةٍ وبهجةٍ، كأنما لمْ يطاردها أحدٌ، بل وسمعَ ليون صوتًا هُيأ إليهِ أنهُ صوتُ ضحكها. وبانتهاءِ كلماتها تلك، وصلَ ليون معها إلى غرفةٍ صغيرةٍ كانَ بها جنديان يحتسيان المشروباتِ، فوقفَ أحدُ الجنديان ورفعَ سيفهُ، وتبعهُ الآخرُ صائحًا: «ما هذا؟!».

ودونَ إجابةٍ، اندفعت الفتاةُ تجاهَ أولهما فغرزت في بطنهِ خنجرًا صغيرًا، فسقطَ إلى الأرضِ فورًا. وتنبَّهَ صاحبهُ فحاولَ أن يكونَ المبادرَ بالهجومِ، ولكن ضربتهُ لمْ يعترضها إلا خشبُ الطاولةِ أمامهُ، وسَلِمَت الفتاةُ لتسدّدَ ثاني طعنةٍ قاتلةٍ، وليون يشاهدُ في دهشةٍ.

وبعد أدائها السريعِ لما وجبَ، التفتت الفتاةُ إلى ليون الذي عجزَ عن التعبيرِ عما رأى، وقالت: «خذ السيفين؛ قد نحتاجهما».

أومأ ليون، وانتزعَ السيفين مِن الجثتين، ثم انطلقَ الاثنان ثانيةً هذه المرة في رواقٍ مختلفٍ، وأصواتُ المطاردين تقتربُ قليلًا قليلًا.

انفتحَ بابٌ أمامَ الفتاةِ فركلتهُ ليغلقَ ثانيةً ويدفعَ مَن فتحهُ مِن الجنودِ للسقوطِ إلى الخلفِ، وقالت: «مِن هنا! اقتربنا!».

انفتحَ البابُ ثانيةً وخرجَ أحدُ الجنودِ، فالتفتَ ليون لحظةً، وأرسلَ أحد سيفيهِ طائرًا ليصيبَ الجنديَّ في قدمهِ كأنما أصابهُ رمحٌ، وسقط الأخيرُ يتألمُ.

ضحكت الفتاةُ وقالت: «لا بأسَ بالرميةِ!».

فقال ليون: «أرجو ألا تكونَ جهتنا أبعدَ مِن هذا».

صاحت الفتاةُ: «وصلنا!».

نزلَ الاثنان سلالم خشبية وفتحا بابًا إلى مخزنٍ صغيرٍ، فدخلا بسرعةٍ وأغلقا البابَ. وفي الحالِ، توجهت الفتاةُ إلى ركنٍ مِن أركانِ الغرفةِ، فأزالت القناعَ عن رأسها لتكشفَ عن شعرٍ بنيٍّ لا يتجاوزُ في طولهِ كتفيها، وأخذت تتحرى المكانَ قبل أن تقولَ: «ها هو هنا، أسرعْ. ساعدني في إزالةِ هذا الصندوقِ».

دفعَ ليون الصندوقَ الذي أشارت إليهِ، فظهرَ سلمٌ حجريٌّ يتجهُ إلى تحت الأرضِ.

أضاءت الفتاةُ مشعلًا صغيرًا، ونزلت السلمَ وهي تقولُ: «انتظر هنا لحظةً واحدةً فقط».

لمْ يدرِ ليون ما عليهِ فعلهُ، فحتى إن طلبت منهُ أن ينتظرَ، لا يمكنهُ أن يقفَ ساكتًا وخطواتُ الجنودِ تقتربُ كلَّ لحظةٍ.

- «ربما كان يجبُ أن أقتلَ ذلك الجنديَّ بدلًا مِن أن أصيبهُ فحسب... هل أرشدَ إلينا الباقين؟ عليَّ فعلُ شيءٍ!».

لمْ يكنْ هناكَ وقتٌ للندمِ.

سألَ ليون: «كم باقٍ مِن الوقتِ؟».

-«دقيقةٌ!».

كانت الدقيقةُ وقتًا كافيًا ليصلَ الجنودُ وقليلًا جدًا إن أرادَ فعلَ شيءٍ للتصدي لهم؛ لمْ يكنْ بالغرفةِ ما يساعدهُ، فكلُّ ما كانَ بالصناديقِ كان طعامًا -تفاحًا وخبزًا- وشرابًا -ماءً وخمرًا، هرَّبهُ الجنودُ لمُتعتهم الخاصةِ-. ثم نظرَ ثانيةً إلى آخِر ما رأى، فوجدَ زجاجاتٍ عدة مِن الخمرِ، وفي الحالِ قلبَ متعةَ الجنودِ إلى سلاح يفيقهم، فبدأ يكسِّرُ الزجاجاتِ على الأرضيةِ بالقربِ مِن البابِ الخشبيّ، ثم أسرعَ ليلتقطَ أحدَ الشعلاتِ المثبتةِ بالحائطِ بينما انفتحَ البابُ.

- «هيَّا! تعالَ!».

رمى ليون الشعلةَ على الأرضِ فبدأت تحترقُ مِن بدايةِ السلَّمِ الذي يقودُ إلى تحت الأرضِ حتى بابِ المخزنِ، وتراجعَ الجنودُ ليقوا أنفسهم مِن النيرانِ المنتشرةِ بسرعةٍ كبيرةٍ.

قفزَ ليون سلمتين، ثم أكمل الأخرياتِ ركضًا وراء الفتاةِ.

- «كنتُ أفضلُ ألا تشعِلَ نارًا!».

- «ما الأمرُ؟».

- «لا شيء! فقط اركض!!».

دخلت الفتاةُ وراءَ ساترٍ صخريٍّ على بُعدِ عدةِ أمتارٍ مِن المدخلِ، فدخلَ ليون وراءها. وقفت وظهرها إلى الصخرِ، وقالت: «سدَّ أذنيكَ! سينفجرُ المدخلُ!».

نزلت إلى الأرضِ وسدَّت أذنيها، وقلَّدها ليون في الحالِ، ثم جاءَ صوتُ انفجارٍ وهزَّةٌ قصيرةٌ، واختفى كلُّ الضوءِ القادمِ مِن المخزنِ... لقد رُدِمَ المدخلُ بالكاملِ.

- «أرأيتَ ذاكَ الانفجارَ؟ لا يستطيعُ أيُّ أحدٍ فعلهُ بسهولةٍ. انفجرَ المدخلُ وظلَّت هذه الحيطان القديمةُ قائمةً. بلا عبقريتي لانهارَ كلُّ هذا الكهفِ!».

وقفَ ليون ثانيةً بعدَ عودةِ الهدوءِ إلى الكهفِ المظلمِ، واستمعَ إلى كلماتِ الفتاةِ المتفاخرةِ بعبقريتها، ثم سألها: «أيمكنكِ إضاءةُ المشعل؟».

- «أا! لقد أوقعتهُ».

- «حسنًا، نحتاجُ ضوءًا، أيُّ شيءٍ سَيَفِي بالغرضِ».

- «مم... حاليًا لا أحملُ إلا المتفجراتِ».

- «أنا آسف أني طلبتُ».

- «انتظر! انتظر! إن أكملنا المشيَ بهذا الممرِ سنصلُ إلى مخزنٍ تحت الأرضِ، وهناكَ سنجدُ ما يمكنُ إشعالهُ؛ لا تقلقْ؛ القفازاتُ التي ألبسها مصصمةٌ لتُشعِلَ أيَّ شيءٍ».

-«القفازاتُ؟».

- «أجل. هيَّا، مِن هنا».

أخذَ ليون نفسًـــا عميقًا، وتبِعَ الفتاةَ في الظلامِ، متحريًّا موضِـعَ كلِّ قدمٍ قبل أن يخطو، ومستندًا إلى إحدى حوائطِ الكهفِ.

وبعدَ أن تقدما قليلًا في الممرِ، بدأ ما في عقلِ ليون يخرجُ على لسانهِ فقالَ: «إذن... مَن أنتِ؟».

- «أنا؟ أنتَ الأميرُ، أليسَ كذلك؟ هذا يجعلني منقذةَ الأميرِ! مجدٌ آخرُ يضافُ إلى سجِلي الناصِعِ!».

- «لمْ أقصدْ...».

- «إذن اسمي؟ دنيا، والبعض يدعونني دُنْدُنْ، استعمل أيهما إن شئتَ».

توقفَ ليون، فالتفتت إليهِ دنيا لتراهُ بعينيها اللتين تعودتا على الظلامِ، وقالت: «ما فائدةُ هذا الفضولِ الآن؟».

ردَّ ليون: «الســببُ؛ قد لا يكونُ هدفكِ قتلي، ولكنكِ لا تبدين كشخصيةٍ أريدُ التورطَ أو يفيدُني التورط معها في شيءٍ».

- «هذا يُدعى نكرانَ الجميلِ».

- «يُدعى الحذرَ الطبيعيَّ».

تنهدت دنيا وقالت: «حسـنًا، حسـنًا، سـأخبركَ قليلًا فقط... مع أني أردتها أن تكون مفاجأةً... ســأعطيكَ عدةَ خيوطٍ وأنتَ حلَّ اللغزَ: واحد، قام بالاســتعانةِ بي وبزميلاتي لننقذكَ، اثنان، هو أحدُ أبناءِ ألســندا، ثلاثة، يبدأ اســمهُ بحرفِ الســين، فمَن هو؟ لغزي صــعبٌ، بالطبعِ يمكنكَ إن صبرتَ ألا تحتاجَ لحلهِ».

لم تتنفسْ إلا وجاءَ ردُّ ليون: «سامح ياسين».

صاحت الفتاةُ: «يا للسرعة! هل لغزي سهلٌ لهذهِ الدرجةِ؟».

- «لا، أنتِ فقط أعطيتني الكثيرَ مِن الخيوطِ: سامح أحدُ أبناءِ ألسندا وحاكمُ إقليمِ إرْكَلَّا، كما أنهُ معنيٌّ بأمرِ العائلةِ الملكيةِ... حزرتُ وأصبتُ».

- «تريدُ لقاءَهُ، أليسَ كذلك؟».

-«أجل».

- «إذن هيَّا حتى لا يعثُرَ الجنودُ على طريقٍ لهذه الممراتِ. أظنُّ أني أرى المخزنَ تحتَ الأرضيّ، هيَّا، لنعثرَ على مصدرِ ضوءٍ».

خطا ليون ودنيا إلى أن صارت الممراتُ الضيقةُ غرفةً واسعةً ظنَّ أنها المخزنَ. كانت غرفةً في حالٍ يُرثى لها، ولكن عدة صناديق خشبية وأشياء مختلفةً كانت مبعثرةً في أرجائها.

حملَ خوذةً كانت على الأرضِ ليتفقدها، ثم رماها في إحدى الصناديقِ، وسألَ: «ما هذا المكانُ؟».

بدأت دنيا تفتشُ وسطَ الأشياءِ المبعثرةِ عن شيءٍ ليضيء الطريقَ أمامهما، وأجابتهُ: «كلُّ حصنٍ قديمٍ لديهِ شبكةٌ مِن الأنفاقِ التي تصلهُ بمثلِ هذه المخازنِ؛ كانت جزءًا مِن استراتيجيةِ جنودِ ديمنتيا منذ عشرة أعوام عندما بدأت الإمبراطوريةُ في التوسعِ، ولكن مع الوقتِ صارت الأنفاقُ عيبًا في الحصونِ؛ يمكنُ الوصولُ إليها بالحفرِ خارجَ الحصنِ، فلمْ تعُدْ تُسْتخدم. بعضها رُدِمَ، وبعضها كما ترى ما زالَ موجودًا».

- «تعرفين الكثيرَ عنها».

ضـحكت وقالت: «هذا أقلُ ما تتوقعهُ مِن عبقريةٍ مثلي!»، ثم عثرت على ما بحثت عنهُ، فحملت قطعةَ خشـبٍ تُشـبِهُ العصـا ولكنها أقصـرُ قليلًا، ومزَّقت جزءًا مِن قماشٍ قديمٍ فلفتهُ حولَ نهايتها، ثم حملتها إلى ليون، وقالت لهُ: «أمسكها لحظةً».

أمسـكَ ليون بالخشـبةِ، وشـاهدَ دنيا وهي تُخرجُ زجاجةً حَوَت سـائلًا ما. رشَّـت السـائِلَ، ثم سـألتهُ الثباتَ لحظةً ومدَّت يديها قُربَ الخشبةِ، وحكَّت قفازيها ببعضٍ فصنعا شرارةً أشعلت نارًا بالقماشِ.

- «وهكذا تصنعُ مصباحًا حين تحتاجُ واحدًا! هيَّا بنا».

أخذت دنيا المصباحَ وتقدَّمت تجاهَ ممرٍ ضيقٍ آخر، وتبعها ليون في صمتٍ.

- «لا تقلق؛ الآن يمكنني قراءة الخريطةِ بوضـوح...مم، مِن هنا. سنرى ضوءَ النهارِ في أيّ لحظةٍ».

لمْ يطُلْ سَيْرُ الاثنين حتى وصلا إلى حيث ظهرَ ضوءُ النهارِ، ثاقبًا الصـخرَ عند ما هُيّأ لليون أنهُ المخرجُ الذي تحدثت مرافقتهُ عنهُ، ولكن صـوتًا غريبًا وصـلَ إلى أذني ليون: لمْ يكنْ صـوتًا مِن جهتهِ أو الجهةِ التي أتى منها، ولكنهُ كان مِن الناحيةِ الأخرى التي تلت الفتحةَ، كما أنهُ كان صـوتًا مُزعجًا، سـمعهُ مِن قبل عندما خرجَ مع أصـدقاءهِ للصـيدِ بجبالِ ألسندا الجنوبيةِ -حيثُ يهطلُ مِثلُ الثلجِ الذي يهطلُ هنا-.

-«انتظري».

استلَّ ليون سيفهُ ووقفَ لحظةً، فتوقفت دنيا متسائلةً عن الخطبِ.

همسَ ليون: «ارجعي إلى الوراءِ ببطءٍ؛ هناك قطٌّ بريٌّ».

- «أحبُّ القطط!».

- «أنا لا أمزحُ؛ تلك الحيواناتُ تقتلُ ما هو أكبرُ منها حجمًا، فما بالكِ بالإنسانِ؟».

أخرجت دنيا خنجرها، وقالت: «لمْ يحسَّ بنا بعد، أليسَ كذلك؟».

- «لا أعلمُ... لا أستطيعُ تحديدَ المسافةِ بيننا وبينهُ بالضبطِ».

- «سأهتمُّ بهِ».

- «غبية! الخنجرُ لن ينفعَ أمامهُ».

-«سأُريكَ».

تقدمت دنيا بحذرٍ ناحيةَ المخرجِ، وبيدها ظلَّ الخنجرُ جاهزًا لأيِّ طارئٍ.

- «عودي إلى هنا!».

-«شش!».

أسكتت دنيا ليون، ولكن بصمتهِ لمْ يشعرْ إلا بالصوتِ الخافتِ الذي يُحْدثهُ الحيوانُ وهو يرتفعُ.

أخذت دنيا خطوتين، ولكنها سمعت خطواتٍ سريعة، فتوقفت ورفعت خنجرها. وفجأةً، رأت شيئًا كبيرًا يقفزُ أمامَ ضوءِ المخرجِ ليهبطَ

بهِ، ثم يقفزُ قفزةً واحدةً أخرى ليصبحَ فوقها مباشرةً. لمْ يكن الخنجرُ ليفيدها أمام الشيءِ؛ علمت أنها مِن هذه الزاويةِ لن تستطيعَ تسديدَ ضربةٍ مميتةٍ؛ فكان عليها أن تتحركَ بسرعةٍ، ولكن إلى أين؟

قررت: *«عندما ينقضُّ، سأتدحرجُ تحتهُ وأسددُ ضربةً إلى ظهرهِ»*.

أخذت قرارها في ثانيةِ قفزِ الوحشِ تجاهها. كان أطولَ مِن الإنسانِ وهو بالهواءِ، وكان شعرٌ غزيرٌ أبيض يغطي جسدهُ كاملًا، إلا بعضَ الأجزاءِ كالوجهِ.

-«الآن!».

أعطت دنيا الإشارةَ لنفسها، وأخذت خطوةً إلى الأمامِ، ثم انبطحت حتى يمُرَّ الوحشُ فوقها، ولكن الحيوانَ لمْ يكنْ بالارتفاعِ الذي يسمحُ لها بالحركةِ التي تخيلتها.

سقطت دنيا على الأرضِ على جانبها الأيمنِ، وثُبِّتَ الوحشُ في حائطِ الممرِ الأيسرِ ميّتًا.

أزالَ ليون سيفهُ مِن صدرِ الوحشِ، فسقطت جثتهُ إلى الأرضِ.

سارعت دنيا بالوقوفِ وصاحت: «لماذا تدخلتَ؟!».

- «الاستهتارُ أمامَ هذه المخلوقاتِ يقتلُ صاحبهُ فقط».

غَمَدَ ليون سيفهُ وسارَ إلى المخرجِ.

نظرت دنيا إلى جثةِ الحيوانِ، وانتفخَ خداها إعرابًا عن استيائها، ثم ركلت رأسَ المخلوقِ وتبعت ليون إلى الخارجِ.

خرجَ الاثنان إلى منحدرٍ ممتدٍ بين الجبلِ وغابةٍ ليست بالبعيدةِ، وكان مَخرجُ الممراتِ تحت الأرضيةِ عبارة عن تجويفٍ في الصخرِ الجبليّ.

توقفَ ليون عندَ جثثِ ثلاثة أحصـنة، وقال: «لقد التهمهم قبل أن يدخلَ باحثًا عن المزيدِ. هذه الحيواناتُ قد تنتظرُ مثلَ هذه الوليمةِ لأسابيع... لذلك تكونُ أكثرَ خطورةً في هذا الوقتِ مِن العامِ».

ظهرت آثارُ أنيابِ القطِّ البريّ في اللحمِ المتبقي مِن الوليمةِ.

تنهدت دنيا وقالت: «هذه أخبارٌ سـيئةٌ... سـنضـطرُّ إلى اتباعِ الخطةِ البديلةِ بفقدانِ الأحصنةِ».

- «وهي؟».

- «سـننتظرُ زميلتي ثم سـنتجهُ معًا إلى قريةٍ مجاورةٍ، سـنبقى هناك إلى أن تهدأ الأمورُ في المنطقةِ... ما مِن مشـكلةٍ! فذلك سـيسـرّعُ مِن لقائكَ بالسيدِ سامح؛ فهو بتلك القريةِ الآن».

أنصتَ ليون لكلامها باهتمامٍ، ثم قال: «هناكَ صوتٌ ما...».

قبل أن يُنهي كلامهُ، قفزَ شيءٌ سريعًا مِن فوقِ الصخورِ العاليةِ، فقفزت دنيا في ذات اللحظةِ متذكرةً صـورةَ القطِّ البريّ الذي هاجمها، واستقرت في يدي ليون الذي أمسكها قبل أن تقعَ.

ضحكت دنيا بصوتٍ عالٍ، وقالت: «ما هذا؟ إنها مجرَّد نورة! آه، لقد أفزعْتِني!».

قال ليون: «هلا ابتعدتِ إن سمحتِ».

نظرت دنيا فوجدت وجهَ ليون في وجهها، فاحمرَّ وجهها سـريعًا وأخذت خطوةً إلى الوراءِ مباشرةً.

- «معذرةً على تأخري».

تحدثت زميلةُ دنيا -نورة-. كان شـــعرُها الأحمرُ الطويلُ والقوسُ الأســـودُ على ظهرها أكثرَ ما يميزها، أما ملابســـها فكانت مخفيةً تحت عباءةٍ بيضـــاء تســـاعدها على الاندماجِ مع الثلجِ المحيطِ. رأت الأحصـــنةَ فلمْ تســـألْ عن الأســـبابِ، ولكن اتجهت إلى الحقائبِ الملقاةِ على الأرضِ، فأخذت حقيبتها وأخرجت عباءتين مِن الأخرى.

- «ارتدِ هذه».

أعطت نورة عباءةً رماديةً لليون فارتداها فوق ملابسهِ، وأعطت أخرى لدنيا فارتدتها، ثم نظرت إلى دنيا لحظةً وقالت: «ما الذي كنتما تفعلانهِ بالضبطِ؟».

احمرَّ وجهُ دنيا بسرعةٍ وقالت: «لا شيء!».

حملت نورة حقيبتها وقالت: «إن كنتِ ســتتركين الحقائبَ، فهيَّا! وأنتَ أيضًا، سيدي الأمير؛ لا يجبُ أن تلمحنا عيون الأعداءِ ونحن نتجهُ إلى الغابةِ».

- «نورة تكونُ مخيفةً وقتَ المهماتِ...».

بكلماتِ دنيا الأخيرةِ تلك، بدأ الجميع الســـيرَ ليعبروا المنحدرَ المغطَّى بالثلجِ، يمروا بجزءٍ مِن الغابةِ، ويخرجوا إلى قريةٍ توجدُ في ملتقى الغابةِ مع السهلِ العظيمِ.

- «تمَّ إرسالُ الجنودِ الاستطلاعيين يا سيدي».

-«حسنًا».

وقفَ قاسم الجراح أمامَ خريطةٍ للمنطقةِ، بينما بلَّغهُ نائبُ قائدِ الحصنِ بالمستجداتِ.

سألَ قاسم: «هل انتهى الدفنُ؟».

- «أجل، سيدي!».

- «والحريقُ؟».

- «سُيْطِرَ عليهِ والحمدُ لله».

- «إذن هكذا يهدأ رجالكَ التافهون، أليس كذلك؟».

أومأ نائبُ القائدِ خائفًا، كسابقهِ في المركزِ.

- «إذن جهّز أفضلَ عشرين رجلًا عندك».

- «أيمكنني أن أعرفَ السببَ، سيدي؟».

رفعَ قاسم عينيهِ عن الخريطةِ وقالَ: «للعودةِ برأسِ ليون طبعًا».

- «ولكن اسمحْ لي يا سيدي، متخذين في الاعتبارِ القتلى والجرحى، والجنودَ الذين أرسلناهم... إن تركَ عشرون رجلًا الحصنَ...».

تركَ قاسم الخريطةَ ومرَّ بالطاولةِ الخشبيةِ التي كانت عليها.

- «مهما حدثَ، نحن في حالةِ حربٍ... قد يظهرُ عدوٌّ في أيِّ لحظةٍ...».

وقفَ قاسم مباشرةً أمام النائبِ، وسألَ بابتسامةٍ ساخرةٍ: «ما الذي سيحدثُ؟».

- «سيبقى قليلون... وأمنُ الحصنِ—».

- «اعذرني، (أمسكَ قاسم بالنائبِ مِن رقبتهِ) العودةُ برقبتكَ لن تفيدني، ولن تحققَ المهمةَ، فإما أن تجهّزَ أفضلَ عشرين رجلًا عندك، أو أن أعود للعاصمةِ بعشرين رأسًا مِثْلَ رأسِكَ».

تراجعَ النائبُ بعد أن تركَ قاسم رقبتهُ، ولكنهُ لمْ يخفْ، وإنما سألَ: «وإلى أين أبلغهم أن يتجهوا؟».

رجعَ قاسم إلى الخريطةِ، وقال: «سأقودهم بنفسي. للآن أنتظرُ عودةَ المستطلعين، ولكن إن تطلبَ الأمرُ سنمشّطُ جميعَ القرى بالمنطقةِ... البعيدةَ والقريبةَ... إن لمْ يتجهوا إلى الحدودِ مباشرةً فسيكونوا بإحداها».

عادَ قاسم لينظرَ في الخريطةِ، ولكن ذهنهُ شُغِلَ عنها بأفكارٍ كثيرةٍ أخرى:

- «قد أكونُ أسألُ المستحيلَ؛ في مثلِ هذا الوقتِ قد يكونوا قد عبروا الحدودَ، وإن فعلوا فمِن أين سآتي بهم؟ لا، حتى الآن، تحديدُ موقعهم شبيهٌ بالمستحيلِ، ولكني لا أملكُ أن أبلّغَ الإمبراطورَ بأني فشلتُ في مثلِ هذه المهمةِ... حتى مع إنجازاتي في الحربِ، قد لا يغفرُ لي هذا الخطأ».

ثارت أعصابُ قاسم فضربَ بقبضتهِ على الطاولةِ بشدةٍ، ثم أطلقَ نفسًا طويلًا مِن فمهِ، وعادَ يتحرى أماكنَ تصلحُ كبداياتِ بحثٍ، مُقْسِمًا لنفسهِ أن يعودَ إلى العاصمةِ برأسِ الأميرِ المهزومِ، كما خطَّطَ بالضبطِ.